

تأثير المكوس على حركة الأسعار في العصر المملوكي في النصف الثاني من القرن الثالث

عشر

البروفسور وان كمال موجاني

أبوبكر ميلاد بيعج

aaeea_2010@yahoo.com

الملخص:

يعد هذا البحث ضمن سلسلة من الحلقات التي تتناول الموارد المالية في العهد الإسلامي , إذ سلط الضوء فيه على الموارد المالية التي استحدثتها دولة المماليك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر , أو سارت على نهج من سبقها من الدول , وهي مكوس أو ضرائب فرضتها الدولة المملوكية استجابةً لمتطلبات سياسية , وليس لها سند شرعي من الكتاب , أو السنة , وقد جاءت الحاجة إليها لما تقوم به بعض الدول الإسلامية في العصر الحديث من فرض ضرائب متعددة الأوجه والقيم غير مكترثة بتبعات هذا العمل , وجاء هذا البحث ليعطي صورة عن التجربة المملوكية , والآثار السلبية التي خلفتها على الاقتصاد المحلي , وفي نفوس الناس . ولتوضيح هذه الملابسات فقد تم استخدام المنهج الوصفي والتحليلي من خلال مجموعة من المصادر والمراجع التي تناولت في جزئيات منها موضوع البحث , وقد تمخض البحث في الوصول الى نتيجة مفادها أن الأثر السلبي الذي خلفته تلك المكوس على الأسعار , وحاجات الناس الضرورية أكثر من الفائدة التي من خلالها تم تبرير فرضها .

0-1 المقدمة :

بسم الله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده , أما بعد:

قامت الدولة الإسلامية منذ ظهورها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم باستحداث أنظمة مالية كان الغرض منها إزالة الفوارق بين طبقات المجتمع الإسلامي , وإنقاذ الناس من الوقوع في الرذائل , والمخالفات كالسرقة , والنصب , والاحتيال , والغش , وهذا من شأنه أن يزعزع الاستقرار للبلاد , والعباد , ويحدث شرخاً كبيراً بين أفراد البلد الواحد , وقد أفرد لتلك النظم ديوان خاص بها منذ التطور الإداري الذي أستحدث في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه , باستخدام الدواوين لتنظيم أمور الدولة المالية والإدارية , وسار

على هذا النهج باقي الخلفاء الراشدين , وعند وصول بني أمية , وبني العباس الى سدة الحكم أحدثوا أمورًا في جباية الأموال غير تلك المتعارف عليها أيام الرسول صلى الله عليه وسلم , والخلفاء الراشدين من بعده , مثل الزكاة , والغنيمة , وقد حذا حذوهم من جاء بعدهم في رسم تلك المصادر المالية الغير شرعية , وكانت تلك الدول تتعلل بم حاجتها للنفقات المالية على الجند , وعلى السلطان وحاشيته , وأيضًا ما ينشأ من مرافق , ومراكز عمرانية , وكانت الدولة المملوكية من بين تلك الدول التي شهد عصرها الأول العديد من المكوس التي فرضت حسب رغبات , وظروف أهل السلطة.

أثار هذا الأمر فضول الباحث عند تصفحه للمصادر التاريخية المعنية بالفترة الزمنية للبحث , وذلك لقيام الكثير من الدول الإسلامية التي يدعي حكامها في العصر الحديث تمسكهم بالدين بفرض الضرائب حيث لم يتركوا أي وسيلة ممكنة للحصول على ما لدى رعيته من مال بشق الطرق والوسائل حتى يعيشوا حياة الترف غير مبالين بآثار تلك الضرائب على الأغلبية الساحقة من مواطنيهم ,وقد أدى هذا إلى حدوث اضطرابات سياسية , ومالية في تلك الدول.

1-1 أهمية البحث :

وتكمن أهمية هذا البحث في تسليط الضوء على فترة من فترات تاريخ الأمة الإسلامية , وما كان فيها من مكوس , وضرائب , وقد خص في هذا المقام دولة المماليك البحرية , والتي رغم قوتها , وازدهارها لكن تخللت بعض فتراتها الزمنية بعض المشاكل الاقتصادية , والتي حاولت علاجها عن طريق فرض جملة من الضرائب أو المكوس.

1-2 مشكلة البحث:

مشكلة البحث تركز على توضيح الآثار التي خلفتها تلك المكوس على الأسعار خاصة ما يتعلق بالسلع الغذائية ذات الاستهلاك اليومي , والتي لا غنى للناس عنها , وما نتج عنها من سخط التجار , وعوام الناس فقد أثرت في ضعف القوة الشرائية للمواطن , وقد تناولت هذه القضية الضرائب المفروضة على أهل البلد بجميع طوائفهم.

1-3 أسئلة البحث:

يحاول البحث أن يجيب على التساؤلات الآتية:

- ما هو التعريف اللغوي والاصطلاحي للمكس؟

- ما هو موقف بعض العلماء والسلطين منها؟

- ما هي أنواع المكوس؟ وما هو الأثر الذي خلفته على الأسعار؟

4-1 أهداف البحث:

تهدف الدراسة الى تحقيق النقاط التالية:

- معرفة المعنى اللغوي والاصطلاحي للمكس أو الضريبة

- توضيح موقف بعض العلماء والسلطين منه

- التعرف على المكوس التي فرضت في الفترة الزمنية المعني بها البحث

- معرفة الآثار المترتبة من المكوس على أسعار بعض السلع.

5-1 حدود البحث:

يتناول البحث المكوس المفروضة في الفترة الزمنية الممتدة بين عامي 1300-1250 م وفي نطاق جغرافي محدود

يتمثل في الأراضي الخاضعة لسيطرة المماليك وهي مصر والشام والحجاز.

6-1 مناهج البحث:

الطريقة التي سيعالج بها الباحث مشكلة البحث , وذلك من خلال استخدام المنهج الوصفي , والتحليلي ,

على مجموعة من المصادر , والمراجع ثم تحليلها للخروج بأفضل النتائج.

7-1 الدراسات السابقة:

- أشار الكاتب فيصل عبدالله بني حمد , في بحثه المعنون بالعوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد

الشام خلال العصرين المملوكي الأول (784-648)هـ/1250-1381م (والثاني 922-784) هـ-1381/

1517م , الى عدة عوامل كانت وراء عدم استقرار الأسعار في فترة حكم المماليك , وأوعز هذا الأمر الى عوامل طبيعية مثل الكوارث الطبيعية كالزلازل والسيول والجفاف, وآفات زراعية مثل الجراد , وأخرى غير طبيعية (بشرية) مثل الاحتكار والرشوة وانتشار العملة المزيفة والحروب والمكوس والضرائب . وقد أشار للمكوس من زاوية واحدة , وذلك من خلال الاجراءات التي قام بها بعض السلاطين للحد من تفاقم الأسعار وزيادتها.

-بينما أورد البيومي إسماعيل صاحب كتاب النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك المكوس والضرائب خلال تلك الفترة من خلال الفصل الثالث للكتاب الذي تناول فيه الكاتب الموارد المالية الشرعية , وغير الشرعية ثم عرج عن بعض منها , وقد شمل الكثير من المكوس وكان تركيزه منصب على تلك التي تؤخذ من التجار الأجانب , والتجار المحليون من اليهود والنصارى.

-ويشير الكاتب أحمد عبد العزيز المزيني في كتابه الموارد المالية في الإسلام للموارد الشرعية لكنه يعقد مقارنة بين الزكاة والضريبة في الفصل الأول بينما يشير في الفصل الخامس الى الضرائب المتفق عليها وهي العشور والخراج , وقد أكد في نهاية الأمر الى أن الزكاة هي التطهير والتنمية بينما الضريبة هي الغرامة والثقل وفقاً لنصوص شرعية استند اليها وهو ما يؤكد احدى جوانب البحث.

-وقد جاء هذا البحث ليثبت من وقائع تاريخية تبعات فرض تلك المكوس التي تلقى معارضة من مشاهير رجال الدين والتجار والعامّة على حركة أسعار السلع.

كلمات افتتاحية : المماليك - المكوس - التقويم - التصقيع - الربع - الجابي .

1-2-1 المكس لغةً واصطلاحاً:

1-2-1-1 المكس لغة هو من الجذر مكس في البيع إذا جى مالاً , والمكس النقص , والظلم , وهو دراهم تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق , (1) ويضيف صاحب كتاب تاج العروس على ذلك بقوله المكاس أو العشار هو من يؤخذ المال من الباعة في الأسواق.(2)

1-2-2-1 والمعنى الاصطلاحي للمكس هو الضريبة التي يفرضها رجال السلطة على الأشخاص , والأموال والسلع , (3) وهي غير المستحقات الشرعية التي يعطيها المسلم امثالاً للأوامر الله مثل الزكاة , لهذا أشار إليها أصحاب المعاجم بمعنى الظلم , لأنها ليست ذات قيمة ثابتة , ولا زمن معين تؤخذ فيه بل تجب وفقاً لهوى

السلطان , وقد أوعز العلامة عبد الرحمن بن خلدون أن من أسباب فرض المكوس على الرعية هو حالة الترف والبذخ التي وصل إليها رجال السلطة والسلطان مما يجعله في حاجة الى كميات كبيرة من المال لتعويض تلك النفقات فيفرض رسوماً (مكوساً) على الأسواق والمبيعات من السلع , ويترب على ذلك فساد الأسواق وكسادها , وقلة العمران(4)

وأيضاً استحدثت تلك المكوس وفقاً لمتطلبات سياسية بسبب كثرة الفتن , والثورات والحروب الخارجية , حيث قضمت تلك الأحداث ما في خزائن الحكام , والسلاطين من أموال وأجبرتهم على نزع ما في خزائن التجار والأثرياء , ولم يتركوا حتى العوام.

إن قيام دول كثيرة في العالم الإسلامي نتج عنه بناء مدن لتكون عواصم لتلك الدول , وبناء منشآت معمارية , وجيش لحماية هرم السلطة , وقد أثر ذلك على المستوى المعيشي للرعية خاصة غلاء الأسعار , وعلى حركة التجار , وقد تأثرت الدولة المملوكية بهذا الأمر في فترات محدودة من زمن هذا البحث.

1-3 موقف العلماء والسلاطين والعامّة من المكوس:

1-1-3 موقف العلماء:

لم تحظى تلك الممارسات المالية الخاطئة بتأييد من علماء الدين في أغلب الأحيان خاصةً ممن شهر عنه العلم , والاستقامة , والذين كانوا لا يهتمهم في الحق لومة لائم , فعندما طلب السلطان المظفر قطز جباية الأموال من الناس لجهاد المغول في اجتماع ضم الأمراء , وشيوخ العلم , وكان من بينهم الشيخ عزالدين بن عبدالسلام الدمشقي وكان أكثرهم علماً و وقاراً وجاهاً , والذي أفتى بأن من حق ولي الأمر جباية الأموال من الناس للجهاد , والدود عن دار الإسلام لكن بشرط أن يفرغ ما في بيت المال من أموال حتى لا يبقى فيه شيء , وأن يبيع الأمراء كل ما لديهم من جواهر وحلي , وتحف نفيسة , ولا يبقى بجعبتهم الا ما يجهز به الجندي من سلاح ومركوب ومؤونة حتى يتساووا مع العامة , (5) فلا يحق للسلطان أن يأخذ شيء من الرعية وخزائنه مملئةً بالمال , ونفائس التحف والمعادن , وعندما خرج الملك الظاهر بيبرس غازياً لبلاد الروم فرض على أهل دمشق أموالاً يكلف بها خيل الجيش والعساكر , فشق ذلك على الناس , وشكوا الأمر للشيخ الامام محي الدين النووي الشافعي , فكلم السلطان , فإلطفه , وربما وعد السلطان الشيخ بالعدول عن الجباية خوفاً من اثاره الفتن ,

واشغال الجيش عن الغزو , ووعدده ان هزم العدو وفتحت البلاد فسيغفي أهل دمشق منها . وعندما حقق الظاهر بيبرس مراده فرح الناس واستبشروا لكنهم عاودهم الحزن عندما جاء المرسوم السلطاني بجمع ما فرض على أهل دمشق , حتى انهم تمنوا زوال دولة الظاهر بيبرس , وقد غضب الشيخ النووي من تصرف السلطان غضباً شديداً (6) ، وقد تكرر هذا الأمر في سنة 700 هـ عندما أعلنت حالة النفير في مصر وبلاد الشام , وأراد أمراء المماليك والسلطان محمد الناصر بن قلاوون أن يستندوا الى فتوى الشيخ عزالدين بن عبدالسلام الدمشقي في وجوب أخذ الضرائب والمكوس من الناس , وأرباب الأموال , فطلبوا من قاضي القضاة العلامة تقي الدين محمد بن دقيق العيد فتوى لتأكيد ذلك , لكنه رفض وأستقال من منصبه , واحتج عليهم بأن الشيخ عزالدين أفتى بذلك بشرط أخذ كل ما عند الأمراء من أموال , فقد كان الكثير من أمراء المماليك يملك أموالاً كثيرة , حتى أن بعضهم كان يجهز بناته بالجواهر واللاآئ للنكاح , ويستخدم آنية من فضة , يدخل به الخلاء . (7) وهكذا , فإن العلماء اتفقوا رغم اختلاف الزمن في عدم اجازة المكوس , لأن المصدر واحد , فلا مجال للتلاعب بالدين مقابل عرض دنيا من مال أو جاه أو سلطان ولأن الضرر يصل لبسطاء الناس من خلال الغلاء الذي يلتهم دراهمهم القليلة .

2-1-3 موقف السلاطين من المكوس:

أكدت الأحداث التاريخية في تلك الفترة أن هذه الضرائب والمكوس كانت ثقلاً كبيراً على كاهل العباد , فقام بعض السلاطين بإلغاء بعض المكوس بمجرد جلوسه على عرش السلطنة سعياً منه لاستمالة العامة حتى يحقق الاستقرار لحكمه , وعندما يستتب الأمر له يعود لفرض المكوس والعسف بالرعية من جديد.

ففي عهد السلطان قطز فرضت الكثير من الضرائب , منها التقويم و التصقيع والخمس والزكاة المعجلة والجوالي المعجلة والتبرع والراجل , (التعريف بهذه المكوس في الفقرة 4) , ولم يترك أحداً من التجار وميسوري الحال إلا وأخذ من ماله , (8) حيث استقطع من مال أحد التجار مبلغاً قدره 250 ألف دينار , (9) وقد أبطل السلطان الظاهر بيبرس جميع هذه المكوس في أول جلوسه على عرش السلطنة , (10) كما أبطل ابنه الملك السعيد ما كان مقرراً على أهل دمشق وهو مبلغ من المال يفرض على البساتين والأماك , (11) وفي السياق نفسه قام السلطان المنصور بن قلاوون الألفي بإبطال زكاة الدولية , (12) وكرر ذلك ابنه السلطان الأشرف خليل الذي أبطل ضريبة الغلة ببلاد الشام (13) وضريبة القمح التي كانت تؤخذ من أهل دمشق , (14)

وعندما تولى السلطان حسام الدين لاجين عرش السلطنة ألغى طرح البضائع على التجار , (15) وقد أبطل عدة مكوس أخرى , وقال لو عشت ما تركت مكسًا , (16) وقد أشار أيضًا أول خليفة عباسي في مصر المستنصر بالله في خطبته الطويلة الى أن الجباية الغير شرعية للأموال تكون وزرًا على صاحبها يوم القيامة(17)

وهكذا فان الملاحظ في هذا السياق يستشف مدى العسف الذي حل بالرعية من جراء تلك المكوس خاصة ما يتعلق بارتفاع أسعار السلع , لذا سارع معظم السلاطين الى ملاطفة شعوبهم بإلغاء تلك المكوس , فعندما أبطل السلطان المنصور بن قلاوون مكس الدولة رخصت الأسعار وهدئت نفوس الأمراء , والجنود , والرعية , (18) وهو دليل على مدى تأثير تلك المكوس على حركة الأسعار.

3-1-3 موقف العامة من المكوس:

كانت الغالبية الساحقة من أفراد المجتمع تتأثر بتلك الإجراءات الاستثنائية , والدائمة وذلك من خلال ارتفاع الأسعار , فالتجار , وأصحاب الإقطاعات يضطرون الى زيادة الأسعار لتعويض ما أخذ منهم قهراً من قبل السلطان وبطانته , فيعود ذلك كله وبالاً على عموم الناس وقد عبر البعض عن غضبه واستيائه من تلك الضرائب المجحفة سنة 700 هـ / 1300 م عندما أخذت منهم ضرائب ومكوس كثيرة بحجة قتال المغول في بلاد الشام , حيث استهزأوا بالعسكر وعيروهم بالهروب من ساحات الوغى في السنة الماضية من هذا التاريخ , وقد أثار ذلك غضب السلطان محمد بن قلاوون , وأمراء المماليك فأصدروا أمراً بأن من يتكلم مع الجنود ويعيرهم يصبح ماله ونفسه ملك للسلطان , (19) وكانت من نتائج تلك المكوس المفروضة ترك زراعة الأراضي , وهجرة الناس عن وطنهم. (20)

4-1 أنواع المكوس:

لقد ذكرت المصادر المتعددة جملةً من المكوس والضرائب التي كان معمول بها في الدولة المملوكية وفيما يلي ذكرها:

4-1-1-1 التقيوم : وهو أن تقوم الدار (أي يقدر ثمنها) ويدفع صاحبها عن كل دينار من ثمنها درهم واحد (21)

2-1-4 التصقيع: وهو أن يؤخذ ايجار شهرين من الأملاك في كل سنة, (22) علاوةً عن الايجار السنوي الذي يدفعه المستأجر.

3-1-4 الجوالي: وهي ضريبة الرأس التي يدفعها أهل الذمة (23) من غير الجزية السنوية التي يدفعونها لبيت المال.

4-1-4 ضريبة الربع: وهي ضريبة مقررة على أهل الاسكندرية وتجارها, حيث يؤخذ من صاحب البضاعة ربع دينار عن كل قنطار يباع(24)

5-1-4 ضريبة وفاء النيل: عندما تقام الاحتفالات بزيادة منسوب مياه النيل استبشارًا بزيادة المحاصيل تؤخذ ضريبة من الناس, واصحاب الحوانيت ثمنًا للحلوى والفاكهة والشواء التي توزع في ذلك اليوم(25)

6-1-4 ضريبة المبشرين: عند تحقيق أي نصر من قبل الجيوش المملوكية أمام أعدائها في الداخل والخارج يجبي من أهل مصر قدر طاقتهم معلوم من المال للاحتفال بهذا النصر(26)

7-1-4 ضريبة الحاج: وهي ضريبة يدفعها الحجاج العابرين للأراضي المملوكية, وكانت تؤخذ في عيذاب من حجاج المغرب مبلغ وقدره 8 دنانير عن كل شخص يريد المرور الى بلاد الحجاز(27)

8-1-4 ضريبة الموائى: وهذه الضريبة يدفعها التجار أصحاب البضائع بعد رسوا السفن المحملة في المرفأ, حيث كان في مدينة رشيد بمصر مركز لجباية تلك البضائع الآتية من البحر أو من مدينة الاسكندرية (28) وتؤخذ أيضًا من الأفراد المسافرين الذين يحملون معهم أموال حيث يفرض على المسلمين دفع الزكاة حتى وإن لم يحل عليها الحول, (29) وكان يطلق على الموظف المختص بهذه الوظيفة متحصل الموقعين أي الجابي, (30) وكان بعض موظفي الموائى لا يمكن له نفوذ سياسي ومكانة اجتماعية (31) وهذا دليل على أن تلك الضرائب انما جعلت سيف مسلط على رقاب العامة أكثر من غيرهم.

9-1-4 حق الطريق (32) وهي ضريبة يدفعها المسافرون والتجار الذين يستخدمون الطرق التي تحت حماية الدولة, اذ تعتبر بدلاً عن الأمن الذي توفره الدولة.

10-1-4 الترك الأهلية: وهي ضريبة فرضها السلطان المظفر قطز على الأموال التي توفي عنها أصحابها من غير المماليك فيؤخذ ثلثها , ويترك الباقي للورثة(33)

11-1-4 الجنايات : وهذه الضريبة عدت عقاب على أهل الساحل الشامي المجاورين للإمارات الصليبية حيث فرضت على الفلاحين جزاءً لما اقترفت أيديهم من قتل وأخذ أموال من ليس له وارث , ونهب مال من جهل مالكة , وتسلبهم على اخوانهم المسلمين , ونقل الأخبار للفرنج , فحجبت أموال كثيرة من نابلس وبلاد الساحل لبيت المال , وكان هذا العقاب بدل قتلهم حيث رأى الظاهر بيبرس أنهم مزارعون يمكن أن يساهموا في سد نقص حاجيات المسلمين (34) ورأي صائب يدل على بعد النظر لان المصلحة والفائدة كانت أفضل من قتلهم.

12-1-4 ضريبة المراكب : كانت تؤخذ من المراكب الراسية في الموانئ البحرية والنهرية ضريبة (35)وقد وضعت الدولة موظف مختص بجمع تلك الضريبة ومعه عمال يساعدونه في مدينة الكربون على خليج الاسكندرية (36)وكانت تؤخذ من السفن البحرية القادمة والذاهبة الى اليمن مكسًا من السلع الواردة مع التجار.(37)

13-1-4 زكاة الدولة : (38) وهي مكس يؤخذ على معاصر السكر والدواليب القائمة على عصر القصب (39)فقد كانت مطابخ ومعاصر السكر من أهم الصناعات في مصر فالسكر من السلع المصدرة من هذا البلد.

14-1-4 ضريبة الغلة : وهي ضريبة تفرض على الغلال ببلاد الشام , وقد أبطلها السلطان الأشرف خليل وعفى عن الذين تأخروا في الدفع ولم يستطيعوا دفع ما عليهم كاملاً ويعرف هذا بالبواقي(40)

15-1-4 طرح البضائع على التجار : (41) كانت هذه العملية مضرّة بالتجار كثيراً لأنهم يرغمون على أخذ بضائع مسعرة من قبل رجال السلطة حتى لو كان سعرها أغلى من السوق مما يتسبب في خسائر مالية للتجار , (42)ولم تكن هذه العملية شائعة في عصر المماليك البحرية لكنها أصبحت قدرًا يواجه التجار في فترة المماليك الشراكسة.

16-1-4 مقرر الخيالة : بعد هزيمة المماليك أمام جيوش التتار سنة 699 هـ/1299م ثم عودتها في السنة التالية اضطر السلطان الناصر محمد الى فرض الضرائب لتعويض خزانة الدولة المفرغة من الأموال , ومن بينها ضريبة

مقرر الخيالة , حيث قاموا بجباية الأموال من أهالي القاهرة وضواحيها , وبعثوا الى ولاية الأطراف بجباية من كل إردب من الغلال خروبة(43)

17-1-4 نصف السمسرة : وقد فرضت هذه الضريبة على السماسرة الذين ينادون بالسلع في الأسواق , حيث يجب أن يدفع نصف ما يحصل عليه الى ديوان الدولة , (44) وهذا لاشك يؤثر على سعر السلعة حيث يزيد ثمنها وفي هذا ضرر للمستهلكين.

18-1-4 زكاة الدولة : وهي ما يؤخذ من الرجل زكاة ماله باستمرار حتى لو أفلس , وإن مات أجبر ورثته بدفع ما عليه من مستحقات(45)

19-1-4 مقرر الدينار : ويؤخذ هذا المكس من التجار عند سفر العسكر للغزو , واختص به تجار القاهرة , ومصر الفسطاط(46)

20-1-4 المال الهلالي : وهو المال الذي يؤخذ مع حلول هلال كل شهر , وكان يجبي من الأملاك المسقوفة , والخوانيت , والحمامات , والطواحين , وعداد الغنم(47)

4-1-21 مكس الحماية , وهو ما يؤخذ من التاجر من المال , أو المتاع من قبل أحد الأمراء لقاء حمايته (48)

4-1-22 مكس العشر , وهو ضريبة تأخذها الدولة قهراً من أرباب الأموال , والتجار أثناء حروبها مع الأعداء (49), حيث تقدر أموالهم ثم يؤخذ عشرها لخزينة السلطان.

4-1-23 ضرائب حسب الظروف : لقد خلفت الحروب آثاراً سلبية على حياة المجتمع المملوكي لما تبعها من اجراءات مادية تعسفية لتعويض الخسائر المادية لخزينة السلطان دون مراعاة للأوضاع المعيشية الصعبة التي يمر بها الكثير من أطراف المجتمع , فعند حدوث فتنة بين أمراء المماليك أدت الى خلع السلطان سيف الدين كتبغا , وتولية حسام الدين لاجين أمر السلطنة لجأ كتبغا الى قلعة دمشق وفرض المكوس على أهلها , (50) وكان يهدف من وراء ذلك شراء ذمم المماليك وتجهيز جيش يعيده الى تحت السلطنة.

وعلى هذا النحو كان خبر حشد المغول قواته لمهاجمة الشام سنة 698 هـ قد أثار الذعر في نفوس الناس فغلت الأسعار وهمت الناس على وجوهها تاركين أموالهم , وحوانيتهم لينجوا بأرواحهم , وعندما دخل غازان زعيم المغول دمشق كان همه الأول فرض المكوس على أهل أسواقها, (51) وكان ذلك سبباً في غلاء الأسعار , وقد كان أكثر المتأثرين عوام الناس.

ومما زاد من معاناة الناس , والمتعيشين من أهل الأسواق أن الدولة الراعية لهم فرضت هي الأخرى مكوساً بسبب الحرب على التجار وأرباب الأموال وهي عشر ما عندهم من أموال(52)

مع بداية سنة 700 هـ/1300م وردت أخبار عزم المغول معاودة غزو الشام , فأمر السلطان محمد الناصر بأن يؤخذ من أصحاب العقارات , والأغنياء مالاً يقرر عليهم وفرض على أصحاب الحوانيت مبلغاً من المال (53) وكان هذا في مصر بينما في أخذت من أهل دمشق أجرة الأوقاف والأملاك لأربعة أشهر دفعة واحدة , وفرض على أثريائها أخذ ثلث أموالهم , وطال الأمر الفلاحين وأراضيهم حيث فرضت عليهم ضرائب على شخصهم والأرض التي يزرعونها , (54) وكان من أشد الأمور وطأةً على أهل دمشق عندما أرغم أميرها المملوكي أقش الأثرم أهل الأسواق بتعليق السلاح في حوانيتهم , وتعلم رمي الشباب استعداداً لمواجهة المغول , وكان يستعرض كل أصحاب صنعة واحداً بعد واحد حتى يتأكد من تواجدهم , ولم تنقضي سنة 699 هـ حتى أصبح أهل دمشق في فقر وقلة مال , (55) وأشدت الحال على الناس , وغلت الأسعار حتى أنهم احتطبوا بأشجار الفاكهة فدمرت الكثير من البساتين في غوطة دمشق , وهاجر الناس الى مصر(56)

لم تكن الحروب الخارجية وحدها سبباً في اعطاء ذريعة لرجال السلطة بأن تمتد أيديهم الى أموال التجار , والعامه , بل ان الحروب الداخلية هي الأخرى كانت سبباً في جعل البعض يفرض مكوساً لتمويل حروبه وبناء قصوره , فالخلاف الذي حدث بين شريف مكة بهاء الدين نجم الدين أبي نعي , وبين عمه الشريف ادريس أمير مكة , أدى الى نزاع عسكري بينهما ثم اتفقا برعاية السلطان الظاهر بيبرس الذي تكفل بدفع مبلغ من المال بشرط أن لا يؤخذ من أحد مكس ولا يتعرض لتاجر , (57) وهذا يعني أن حجاج بيت الله الحرام يدفعون عند دخولهم الأراضي المملوكية ثم يدفعون للقائمين على أمور الحجاز . فقد كان أمراء مكة يؤخذون من حجاج مصر على كل حمل 30 درهم. (58)

يضاف الى ذلك أن بعض أمراء المماليك كانت تطلق يده في منطقة جغرافية معينة فيؤخذ منها مكوس لقاء اخضاعها لمركز السلطة المملوكية في القاهرة , فقد كان أحد أمراء المماليك يأخذ اتاوة من مناطق بنجد والحجاز سنويًا , (59) وفرضت على بعض المناطق عقوبات على أهلها كالصالحية بظاهر دمشق , وقد أبطل هذا المكس السلطان الأشرف خليل. (60)

الخلاصة:

لقد شكلت المكوس والضرائب عبئًا ثقيلاً على الرعية من خلال ارتفاع الأسعار , وانتشار الفقر , وضعف القوة الشرائية للكثير من أبناء البلد , لأن الحجج التي من أجلها فرضت لم يكن لها عائد على عموم الناس , وقد كان المستفيد الأكبر من هذه المكوس السلطان وحاشيته , ويمكن اجمال النتائج التي تم التوصل إليها في هذا البحث الى النقاط التالية:

- 1- الحقيقة التي من أجلها فرضت المكوس في أغلب الأحيان هي تلبية رغبات أعلى هرم السلطة في الحصول على الأموال اللازمة للنفقات الكثيرة داخل أروقة القصور.
- 2- لاقت تلك الاجراءات الغير شرعية معارضة من العلماء الذين اشترطوا على ولاة الأمور أن تكون خزائهم خاوية من الأموال حتى يتم شرعنت تلك المكوس.
- 3- يجب أن تكون أسباب فرضها مقنعة , وتعود للصالح العام كأن تكون الدولة بحاجة للمال لا عداد الجيش وتمويله أو رفع الضرر عن معاناة الناس كالمريض والجوع.
- 4- لم تعرف هذه المكوس ثباتًا في القيمة , والزمن.
- 5- أدت هذه المكوس في أغلب الأحيان الى ارتفاع الأسعار خاصةً المواد الغذائية مما زاد من حنق العوام على السلطان ورجاله.
- 6- أسفرت في بعض الأحيان الى هجرة الفلاحين , والصناع , والتجار بسبب كثرة الجبايات.
- 7- أثرت الحروب بشكل سلبي على استقرار الأسعار من خلال قلة المجلوب وكثرة المكوس على أصحاب المتاجر , مما جعل التجار يرفعون الأسعار لتعويض الفاقد من أموالهم.
- 8- شعر بعض السلاطين بتأثير تلك المكوس على حياة الناس عامهم وخاصهم , فجعلوها وسيلة لتطبيب قلوب الناس , واستمالتهم من خلال ازالة بعضًا منها بمجرد جلوسهم على العرش.

9- بعض المكوس كانت عقابًا لبعض المناطق أو فئات من السكان جراء ما قاموا به من أعمال أخلت بأمن الدولة واستقرارها.

10- التعرف على أنواع المكوس الشائعة في فترة قيد الدراسة.

هوامش البحث:

- 1- الفيروز آبادي , مجد الدين محمد بن يعقوب 2008 , م , تحقيق , أنس محمد الشامي , زكريا جابر أحمد , دار الحديث , القاهرة , مصر , ص. 1549.
- 2 - الزبيدي , محمد مرتضى الحسيني 1965 , م , تاج العروس من جواهر القاموس , مطبعة حكومة الكويت , الكويت , ج , 16 تحقيق , محمود محمد الطناجي , 514.
- 2- اسماعيل , البيومي 1998 , م , النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك , الهيئة المصرية العامة للكتاب , 186.
- 3- اسماعيل البيومي , النظم المالية , 186 .
- 4- ابن خلدون , ابو زيد عبد الرحمن بن محمد الاشبيلي التونسي المصري المالكي , العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر , اعتنى به وصححه , ابو صهيب الكرمي , بيت الأفكار الدولية , عمان الأردن , 141.
- 5- ابو المحاسن , جمال الدين يوسف ابن تغري بردي 1992 , م , النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة , تقديم وتعليق , محمد حسين شمس الدين , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ج 68 , 8 ; ابن كثير , عماد الدين ابي الفدا اسماعيل 1998 , م , البداية والنهاية , تحقيق , عبدالله التركي , هجر للنشر , القاهرة , مصر , ج 17 , 412 ؛ الذهبي , شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان , 1999 م , تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام , تحقيق , عمر عبدالسلام تدمري , ج 48 , دار الكتاب العربي , بيروت , لبنان , 45.
- 6- ابن الفرات , ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم 1942 , م , تاريخ ابن الفرات , تحقيق , قسطنطين زريق , المطبعة الأمير كانية , بيروت , لبنان , مج 7 , 85 .

- 7- المقريري ,تقي الدين أحمد بن علي 1997, م ,السلوك لمعرفة دول الملوك , تحقيق ,محمد عطا , دار الكتب العلمية , بيروت ,لبنان ,ج2 , 327 .
- 8- ابن عبد الظاهر ,محيي الدين , 1976م ,الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ,تحقيق,عبد العزيز الخويطر , الرياض ,المملكة العربية السعودية, 77 ؛ ابن أيبك , أبوبكر بن عبدالله , 1971م , كنز الدرر وجامع الغرر , تحقيق , أولرخ هارمان , من إصدارات , المعهد الألماني بالقاهرة , مصر , ج8 , 63؛ اليوناني , قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد بن أحمد البعلبكي الحنبلي , 1954م , ذيل مرآة الزمان , مج1 , مكتبة آيا صوفيا , اسطنبول , تركيا , 372.
- 9- ابن عبد الظاهر,الروض الزاهر, 48 .
- 10- بيبرس المنصوري1993 , م ,مختار الأخبار ,تحقيق ,عبد الحميد صالح حمدان , الدار المصرية اللبنانية , 13.
- 11- ابن الفرات ,تاريخ ابن الفرات ,مج7 , 117.
- 12- المقريري ,السلوك ج2, 122 .
- 13- المقريري , السلوك , ج2 , 221 .
- 14- المقريري ,السلوك2 , 247 .
- 15- المقريري ,السلوك , ج2 , 276 .
- 16- المقريري ,السلوك , ج2 , 302 .
- 17- بيبرس المنصوري , ركن الدين الدوادار , 1998م , زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة , تحقيق , دونالد س ريتشارد , الشركة المتحدة للتوزيع , بيروت , لبنان , 62 ؛ ابن دقماق , صادم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدير العلائي1999, م نزهة الأنام في تاريخ الإسلام , دراسة وتحقيق , سمير طيارة , العصرية صيدا , بيروت , لبنان , 280,المقريري , السلوك , ج2 , 533 .
- 18- ابن الفرات , تاريخ ابن الفرات , مج7 , 152.
- 19- المقريري, السلوك , ج2 , 335 .
- 20- القلقشندي , صبح الأعشى في صناعة النشا , ج13 , 26 .
- 21- ابن عبد الظاهر, سيرة الملك الظاهر , 77 ؛ المقريري ,السلوك , ج2 , 437 ؛ ابن أيبك , كنز الدرر وجامع الغرر , ج8 , 63
- Rabie, H.m,1970, the size and value of the Iqta-a ,Studies in the economic history of the middle east, Oxford. .

- 22- ابن عبد الظاهر, سيرة الملك الظاهر , 77 ؛ النويري, شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب , نهاية الأرب في فنون الأدب , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ج 30 , 5 ؛ دهمان , محمد أحمد , 1990 م , معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي , دار الفكر المعاصر , بيروت , لبنان . 45,
- 23- المقرئزي , 1998 م , المواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار , تحقيق , محمد زينهم , مديحة الشرفاوي , ج 1 , 308 .
- 24- ابن عبد الظاهر , سيرة الملك الظاهر , 175 .
- 25- ابن اياس , محمد بن أحمد بن اياس 1960 , م , بدائع الزهور في وقائع الدهور , مطابع الشعب , القاهرة , 110.
- 26- ابن اياس , بدائع الزهور . 101 ,
- 27- الادريسي , ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس , نزهة المشتاق في اختراق الآفاق , مكتبة الثقافة الدينية , القاهرة , مصر , 135 .
- 28- ابن حوقل , ابي القاسم بن حوقل النصيبي 1992 , م , صورة الأرض , منشورات مكتبة الحياة , بيروت , لبنان , 132 ,
- 29- ابن جبير , ابو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي , رحلة ابن جبير , دار صادر , بيروت , لبنان . 13 ,
- 30- الصفدي , صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي 1998 , م , أعيان العصر وأعوام النصر تحقيق , مجموعة من المؤلفين , دار الفكر المعاصر بيروت لبنان , ج 1 , 303 .
- 31- الصفدي , ج 1 , 303 .
- 32- ابن عبد الظاهر , سيرة الملك الظاهر , 136 ؛ المقرئزي , السلوك , ج 1 , 550 .
- 33- المقرئزي , السلوك , ج 1 , 521 .
- 34- المقرئزي , السلوك , ج 1 , 554 .
- 35- المقرئزي , السلوك , ج 2 , 26 .
- 37- ابن حوقل , صورة الأرض 33 ,
- 38- ابن الفرات , تاريخ ابن الفرات , مج 7 , 152 .
- 39- البيومي اسماعيل , النظم المالية , 202 , أخذت أيضاً على مزارع السكر ضريبة غير الخراج على اعتباره سلعة تجارية مطلوبة في الأسواق التي خارج مصر , للمزيد ينظر ,
- Sato Tsugitaka , sugar in the Economic Life of Mamluk Egypt , 8 .
- 40- المقرئزي , السلوك , ج 2 , 220 .

- 41- المقرزي, السلوك , ج 2 , 276 .
- 42- المقرزي , 2007م , اغاثة الأمة بكشف الغمة , تحقيق , كرم حلمي فرحات , عين للدراسات والبحوث , القاهرة , مصر. 107 ,
- 43 النويري, نهاية الأرب , ج 30 , 256 .
- 44- المقرزي , السلوك , ج 2 , 328 .
- 45- المقرزي , الخطط , ج 1 , 306 , عاشور عبد الفتاح 1976 م,العصر المماليكي في مصر والشام , دار النهضة العربية , القاهرة , مصر. 313 ,
- 46- المقرزي , الخطط , ج 1 , 306 .
- 47- المقرزي , الخطط , ج 1 , 307 .
- 48- الجزري , شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابراهيم 1998, م , تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكاير والأعيان من أبنائه , تحقيق , عبد السلام تدمري , المكتبة العصرية , صيدا , بيروت, ج 1 , 297 .
- 49- المقرزي , السلوك , ج 2 , 328 .
- 50- الجزري , حوادث الزمان, ج 1 , 333 .
- 51 ابن كثير , البداية والنهاية , ج 17 , 722 .
- 52- المقرزي , السلوك , ج 2 , 328 .
- 53- المقرزي , السلوك , ج 2 , 335 .
- 54- ابو الفدا , عماد الدين اسماعيل بن علي , المختصر في أخبار البشر , تحقيق , محمد زينهم محمد عزب , ج 4 , دار المعارف , القاهرة , مصر , 58 ؛ العيني, بدر الدين محمود 2010, م, عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان , تحقيق , محمد محمد أمين, دار الكتب القومية , ج 4, 126, وقد كانت الضرائب التي يدفعها الفلاحين كثيرة منها ما يدفع على المحاصيل , وما يدفعه الفلاح عن نفسه حتى قبل نضج المحصول للمزيد ينظر Sato Tsugitaka , Fiscal Administration in Syria during the Reign of sultan al-Nasir Muhammad, 6 and after .p.

54- المقرزي , السلوك , ج 2 , 331 .

- 56 المقرزي , السلوك , ج 2 , 335 .

57- المقرزي , السلوك , ج 2 , 57 .

58- المقرزي , السلوك , ج 2 , 185 .

59- المقرزي , السلوك , ج 2 , 180 .

- 60- البرزالي , علم الدين القاسم بن محمد يوسف 2006 , م , المقتني على كتاب الروضتين , تحقيق , عبد السلام تدمري , المكتبة العصرية , صيدا , بيروت , لبنان , ج 1 , 330 .
- المصادر والمراجع :-
أولاً: المصادر :-
- 1- الفيروز آبادي , مجد الدين محمد بن يعقوب , 2008م , تحقيق , أنس محمد الشامي , زكريا جابر أحمد , دار الحديث , القاهرة , مصر..
 - 2- الزبيدي , محمد مرتضى الحسيني , 1965م , تاج العروس من جواهر القاموس , مطبعة حكومة الكويت , الكويت ج 16 , تحقيق , محمود محمد الطناحي
 - 3- الصفدي , صلاح الدين خليل بن أيك الصفدي , 1998م , أعيان العصر وأعيان النصر تحقيق , مجموعة من المؤلفين , دار الفكر المعاصر بيروت لبنان , ج 1.
 - 4- ابن خلدون , ابو زيد عبد الرحمن بن محمد الاشبيلي التونسي المصري المالكي , العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر , اعتنى به وصححه , ابو صهيب الكرمي , بيت الأفكار الدولية , عمان الأردن ,
 - 5- ابو المحاسن , جمال الدين يوسف ابن تغري بردي , 1992م , النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة , تقديم وتعليق , محمد حسين شمس الدين , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ج 8 ,
 - ابن كثير , عماد الدين ابي الفدا اسماعيل , 1998م , البداية والنهاية , تحقيق , عبدالله التركي , هجر للنشر , القاهرة , مصر 6-
 - 7- ابن الفرات , ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم , 1942م , تاريخ ابن الفرات , تحقيق , قسطنطين زريق , المطبعة الأمير كانية , بيروت , لبنان , مج 7 ,
 - 8- ابن عبد الظاهر , محي الدين , 1976م , الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر , تحقيق , عبد العزيز الخويطر , الرياض , المملكة العربية السعودية ,
 - بيبرس المنصوري , 1993م , مختار الأخبار , تحقيق , عبد الحميد صالح حمدان , الدار المصرية اللبنانية 9-
 - 10- ابن دقماق , صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي , 1999م , نزهة الأنام في تاريخ الإسلام , دراسة وتحقيق , سمير طيارة , العصرية صيدا , بيروت , لبنان ,
 - 11- النويري , شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب , نهاية الأرب في فنون الأدب , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ج 30.
 - 12- المقرئزي , تقي الدين أحمد بن علي , 1997م , السلوك لمعرفة دول الملوك , تحقيق , محمد عطا , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ج 2 ,

- المقريري, 1998م, المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار, تحقيق, محمد زينهم, مديحة الشرقاوي 13 -
- المقريري, 2007م, اغاثة الأمة بكشف الغمة , تحقيق, كرم حلمي فرحات , عين للدراسات والبحوث, القاهرة , مصر 14
- 15- الادريسي, ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس , نزهة المشتاق في اختراق الآفاق, مكتبة الثقافة الدينية, القاهرة , مصر ,
- ابن حوقل, ابي القاسم بن حوقل النصيبي , 1992م , صورة الأرض, منشورات مكتبة الحياة , بيروت , لبنان ,
- 16 -
- ابن جبير , ابو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي , رحلة ابن جبير, دار صادر , بيروت , لبنان -
- 17
- 18- الجزري, شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابراهيم, 1998م , تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكاير والأعيان من أنبائه, تحقيق, عبد السلام تدمري , المكتبة العصرية , صيدا , بيروت , ج 1 ,
- 19- البرزالي, علم الدين القاسم بن محمد يوسف , 2006م , المقتفي على كتاب الروضتين , تحقيق, عبد السلام تدمري , المكتبة العصرية , صيدا , بيروت, لبنان , ج 1 ,
- 20- العيني, بدر الدين محمود, 2010م , عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان, تحقيق, محمد محمد أمين , دار الكتب القومية , ج 4
- 21- ابو الفدا , عماد الدين اسماعيل بن علي , المختصر في أخبار البشر , تحقيق , محمد زينهم محمد عزب , ج 4 , دار المعارف , القاهرة , مصر
- 22- الادريسي, ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس , نزهة المشتاق في اختراق الآفاق , مكتبة الثقافة الدينية, القاهرة
- 23- ابن اياس , محمد بن أحمد بن اياس, 1960م , بدائع الزهور في وقائع الدهور , مطابع الشعب, القاهرة .
- 24- بيبرس المنصوري , ركن الدين الدوادار , 1998م , زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة , تحقيق , دونالد س ريتشارد , الشركة المتحدة للتوزيع , بيروت , لبنان ,
- 25- ابن عبد الظاهر, محي الدين , 1976م, الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر, تحقيق, عبد العزيز الخويطر , الرياض, المملكة العربية السعودية
- 26- ابن أيبك , كنز الدرر وجامع الغرر , تحقيق , أولرخ هارمان , من إصدارات , المعهد الألماني بالقاهرة , مصر , ج 8 ,

- 27- اليوناني , قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد بن أحمد البعلبكي الحنبلي , 1954م , ذيل
مرآة الزمان , مج 1 , مكتبة آيا صوفيا , اسطنبول , تركيا
- 28- الذهبي , شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان , 1999م , تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير
والأعلام , تحقيق , عمر عبدالسلام تدمري , ج48 , دار الكتاب العربي , بيروت , لبنان .
- , - :ثانيا المراجع
- اسماعيل , البيومي , 1998م,النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ,الهيئة المصرية العامة للكتاب
-
- دهمان , محمد أحمد , 1990م, معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي, دار الفكر المعاصر , بيروت , لبنان
- عاشور عبد الفتاح , 1976م,العصر المماليكي في مصر والشام ,دار النهضة العربية , القاهرة , مصر
- Sato Tsugitaka , Fiscal Administration in Syria during the Reign of sultan al-Nasir
Muhammad,6 and after.
- Sato Tsugitaka ,sugar in the Economic Life of Mamluk Egypt, .
- Rabie, H.m,1970, the size and value of the Iqta-a ,Studies in the economic history of the
middle east, Oxford .